من أعلام الحركة الوطنية الموريتانية

الشيخ ماء العينين(حياته وبعض أعماله)

الشيخ محمد مصطفى ماء العينين بن الشيخ محمد فاضل بن مامين من كبار الشيوخ البارزين الذين عرفتهم الصحراء في أواسط القرن **13**هـ، ينتهي نسبه إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وأمه (**منَ**) من أسرة علم واحترام عند سكان موطن مسقط رأس المترجم له، سماه والده محمد المصطفى على شيخه ولقبه بماء العينين. ولد الشيخ ماء العينين يوم 27 شعبن 1246هـ في منطقة الحوض من بلاد شنقيط، من أبوين شريفين في الحسب والنسب كما تقدم، وهو الإبن الثاني عشر للشيخ محمد فاضل. وقد توفي ليلة 20شوال 1328هـ / 10اكتوبر 1910 بتيزنيت الواقعة وسط المملكة المغربية. نشأ ماء العينين وتربى في حضانة والديه وبين إخوته ووسط عشيرته تميز عن أقرانه بحفظه القرآن الكريم في سن السابعة من عمره، وقال ابنه العالم الشاعر أنه حفظ جميع المتون المعروفة في المذهب المالكي، والمتداول من غيره من بقية المذاهب، وببلوغه سن الثامنة عشر كان قد أتم تحصيله العلمي خاصة في الفقه والحديث وغيرها من المعارف التي كانت سائدة في بيئته، وإلى جانب التكوين العلمي تلقى الشيخ من والده تربية حربية، ودراية بالمسالك الصحراوية، حيث نشأ الشيخ جامع بين العلوم الشرعية والأدبية والأساليب الحربية، وقد بلغت مؤلفاته نحو 500 عنوان. أخذ عن والده محمد فاضل بن مامين (المتوفى 1286هـ/1869م) جميع العلوم العقلية والنقلية، بعدها تاقت نفسه إلى الدخول في الطريقة الصوفية...قصد بتاريخ 1274هـ البقاع المقدسة لتأدية مناسك الحج وعمره 28 سنة، وأثناء الرحلة زار العديد من المدن المغربية، فحز في نفسه ما رآه من اختلاف بين الطرق الصوفية، لكونه من أتباع الطريقة الفاضلية التي تلقى تعاليمها عن والده... قصد في طريقه إلى الحج السلطان مولاي عبد الرحمان الذي أكرم وفادته وأحاطه بالتجلة والاحترام...فتوطدت صلاته بالمخزن، ويجمع كل من كتب عن الشيخ ماء العينين حول الحظوة والمكانة المرموقة التي تمتع بها عند سلاطين المغرب من عهد عبد الرحمان(1859-1873) إلى عهد مولاي عبد الحفيظ(1912-1908).

تألق اسمه في سماء المعرفة بين الناس في كل من الصحراء وسوس ومراكش وفاس...كشيخ وعالم وفقيه ومحدث وأديب ومتصوف وقائد في ميدان الحرب، ومجاهد على رأس المجاهدين في ساحة الوغى والقتال، ورائد إسلامي لا يشق له غبار في حلبات العلم والمعرفة، وفوق منابر الخطابة والتوجيه والإرشاد والتربية. تعلم وتثقف وتتلمذ على والده الشيخ محد فاضل وانقطع إليه انقطاعا كليا، كما أخذ عن أعلام أجلاء في عصره لكنه استكمل تكوينه العلمي في مطالعاته الحرة لمختلف الكتب مع التدريس والتأليف، فكان عصاميا نابغ في كل فن من فنون العلم التي التفت إليها فأدرك منها ما لم يدركه غيره في عصره في تلك البلاد. أخذ عنه جماعة منهم ابن أخته أبو عبد الله بن العتيق الشنقيطي، وأجاز جماعة منهم الشيخ المهدي الوزاني. وذكر صاحب المعسول أن الشيخ الصحراوي(ت. نحو 1373هـ) أخذ عن

الشيخ ماء العينين علوما منها علم الأصول ثم هاجر معه إلى تيزينيت، فلم يزل يأخذ عنه إلى أن توفي الشيخ في تزينيت سنة 1328هـ.

كان الشيخ ماء العينين متعدد المواهب متنوع المعارف، فكان عالما معلما، ففي مرحلة التحصيل(النظر والتبصر) نجده بدأها بالأخذ من شيوخ بلده وذلك بعد أن نال حظا كبيرا من المعارف حتى فاق أساتذته حفظا واتقانا.وبعد أن أصبح مؤهلا لمرتبة الشيخ خرج إلى الصحراء عام 1853 حيث نوى الإقامة حسب إرشاد والده، فأنشا مدرسة علمية، وتتلمذ على يديه عدد كبير ساكني الصحراء. فكان جامعة علمية وفكرية في السمارة بلورت مشروعه الفكري والثقافي، وصارت السمارة ذائعة الصيت وأصبحت مركزا هاما للدراسة وحفظ القرآن، واتسمت بالشمولية ، كما ساهمت في جهاده ضد الاستعمار.

تآليفه وبعض أعماله:

إن الذين عايشوه وكتبوا عنه اتفقوا على أنه ليبق فن إلا وألف فيه، وتمتاز تآليفه بوحدة الموضوع، وبمنهجية متطورة على زمنه، وبالنزاهة في الاستشهاد بأقوال غيره من العلماء. ألف في التصوف والتفسير والحديث واللغة والسير والأصول والبيان وغيرها. ولقد ساعدت مصنفاته خاصة في التصوف على انتشار الطريقة القادرية في فاس ومراكش وموريتانيا، كا ساعدت على ذيوع شهرته بين العلماء لدرجة أن أطلقوا عليه لقب القطب. وفي هذا الصدد يقول أخيار بن الشيخ ماء العينين أنه ألف ما يزيد على المائة هذا دون المراسلات والفتاوى. والحقيقة أنه اشتغل بالتآليف والتفهم والاستيعاب، الشيء الذي لم يكن مألوفا عند علماء جهته الذين تميزت مدرستهم بحفظ النصوص. من أسماء تآليفه الكثيرة جدا:

* كتاب في تفسير الفاتحة * كتاب في قوله(**ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار**).

* كتاب في قوله تعالى(إنما يخشى الله من عباده العلماء). * اللؤلؤ المحوز الجامع ما في الجامع الصغير والرموز.

* صلة المترجم على صلة الرحم. * في التوحيد والعقائد والسيرة النبوية نجد: منظومة في العقائد الست والستين الواجبة ورغم اختصارها فإنها أفادت وكفت في موضوعها، منظومة في أسمائه صلى الله عليه وسلم ومنها في التوحيد والأصول والفقه، كتاب وصف الصالحات من النساء وعكسهن، ديوان في المقاصد الربانية والمدائح النبوية، منظومة في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وسيرة بناته، ديوان كبير في الأدعية والأذكار. ومن مؤلفاته في النحو والبيان: هداية المبتدئين في النحو، أوزان البحور المتقاربة، مفيد الراوي على شرح ابي مخاوي. ومن مؤلفاته في التصوف: نظمه المسمى 'أددب المريد'، ومنتخب التصوف، الذي اشتمل على موقفه من التصوف وما إلى ذلك. ومن مصنفاته أيضا في الأصول نذكر:

* المرافق على الموافق في الأصول: شرح به الموافقات للشاطبي.

* الأقدس على الأنفس وهو عبارة عن شرح على منظومته.

* تنوير السعيد في العام والخاص: وهو أيضا شرح لنظمه المفيد.

* أحكام التقليد وهو نظم رد فيه على من أنكر وجوب التقليد وجلب فيه الأدلة على وجوب التقليد من لدن الصحابة رضوان الله عليهم.نظم في الإجماعيات: اختصره العلامة الموريتاني محمد يحيى بن سليمة اليونسي. نظم قواعد أبي حنيفة. *دليل الرفاق على شمس الاتفاق: وهو شرح لنظمه المسمى شمس الاتفاق وهو ثلاثة أجزاء في ثلاثة مجلدات قام بتحقيق الجزء الأول منه البلعمشي أحمد يكن.....ونتيجة لهذا العلم فقد أسس الشيخ ماء العينين عدة زوايا في مراكش وفاس والصويرة، إضافة إلى زاويتيه الرئيسيتين في السمارة بالصحراء وبأدرار...لما اكتملت في ذهن الشيخ فكرة الاستقرار، قرر تشييد مدينة السمارة على تل يشرف على وادي سلوان بالساقية الحمراء.

مقاومة الشيخ ماء العينين للاستعمار:

مع دخول الفرنسيين إلى الأراضي الموريتانية واجهوا مقاومة ثقافية صلبة تتمثل في المحاضر وتعاليمها وفتاوى علمائها المناهضة للاستعمار، فقد كان للشيخ دور بارز في المقاومة الثقافية والعسكرية. حيث كانت حركة ابن ماء العينين أكثر وعيا بأهمية التحصين العلمي في مجابهة الدخيل. ومن المعارك والهجومات التي كان الشيخ من ورائها والتي ألحقت أضرارا بالجيش الغزي معركة الفيلات على بعد 25 كلم جنوب تجكجة سنة 1906. فكان الشيخ من زاوية السمارة يخطط لاحتواء الوضع وإفشال المؤامرات وتوحيد القبائل ...بلغ صيت الشيخ ماء العينين وحركته التحريرية في أقصى الصحراء جنوبا وشرقا، كما أحدث تفاؤلا كبيرا في مناطق الصحراء مع عودة كل مناهضي الاستعمار الاستعمار إلى نشاطهم الحربي، وتأكد بسرعة دور ماء العينين في التحريض من المحيط إلى تمبكتو. ففي 12 ماي 1905 انتهت معركة كوبولاني، حين اقتحم المجاهدون عليه ثكنة تجكجة مسلحين بالبنادق والسيوف، يتزعمهم محمد ولد مولاي الزين، من أولاد النور، وعليه انهالت التقرير الفرنسية تطالب بالتحقيق في علاقة السمارة بمقال ممثل فرنسا.

عمل ماء العينين في الجهاد واستشعر خطر التدخل الأجنبي الذي كان كوبولاني يمهد له في الجنوب، ويمكن اجمال أعمال الشيخ في التصدي للتدخل الفرنسي في:

*اخضاع المناطق الصحراوية من الساقية الحمراء حتى الحوض الحوض والترارزة للسلطة المركزية حيث رحل الشيخ إلى مرتاكش ليحصل من السلطان على ظهير ولايته خليفة على جميع المناطق

*- العمل على توحيد القبائل وفض ما بينها من خلافات ونزاعات في إطار السعي إلى مؤاخاة أبناء الملة المحمدية للوقوف في وجه التدخل الأجنبي.

* تعيين رؤساء للمجاهدين، فقام بتعيين ابنه حسنة لتزعم المقاتلين بأدرار وتكانت.

* القيام بدور الاتصال بين السلطان بفاس والقبائل الصحراوية المجاهدة ونقل مطالبها في التزود بالسلاح والأعوان...

* عمل الشيخ ماء العينين على تحميس الصحراويين لقتال الفرنسيين ووضع الخطط لذلك سواء بجماعات منظمة من المجاهدين أو بفرق صغيرة تبنى ما يعرف بحر العصابات، وقد أثمرت تلك العمليات حيث أدت إلى مقتل كوبولاني الذي نزل بالجنوب يو 13 ماي 1905، كما هوجمت تجكجة وحوصرت عدة أيام وطرد الفرنسيون من أكجوجت، ي وهزم وقتل عدد من الضبط الفرنسيين مثل القبطان روبو والقبطان منجان والقبطان بالو والعقيد فيولي، وكان الشيخ يقوم بإدارة المعارك من مقره بالسمارة اعتمادا على جماعة منظمة من المخبرين، كما تولى قيادة المعارك أبناؤه خاصة حسنة والطالب أخبار.

* استطاع الشيخ ماء العينيين من خلال تحركاته ومبادراته الجهادية المنظمة التي قامت بها القبائل الصحراوية طرد الفرنسيين من الصحراء من الساقية الحمراء حتى أدرار والترارزة، وصارت السمارة رمز النصر على المسيحيين.

انتهت حركة جهاد الشيخ ماء العينيين بوفاته، غير أن أبناءه تابعوا خطته ووسعوا دائرة الجهاد ليشمل الجنوب المغربي كله من سوس وحتى ولاتة، واستمر الجهاد بزعامة الشيخ أحمد الهيبة.ثم أخيه الشيخ مربيه ربه، لقد تطورت الحركة الجهادية منذ وفاة ماء العينين حتى السيطرة الفرنسية النهائية على المغرب عام 1934.

ومن أهم الملامح التي ميزت شخصية ماء العينين:

* انتماؤه إلى أسرة تسلسل فيه العلم والصلاح أبا عن جد منذ أجيال متعددة.

* أدرك من المشاركة في كافة العلوم المتداولة في عصره إدراكا تاما تدل عليه تآلبفه المتعددة في الحديث والتفسير واللغة العربية والأصول والبيان والتصوف وغيرها.

* انه شيخ من شيوخ الصوفية وله في التصوف يد طولى علما وعملا مما مكنه من استقطاب عدد كبير من الشيوخ والعلماء في كل من سوس والصحراء.

* اتصالاته ووفاداته على ملوك المغرب مما عزز مكانته الدينية والسياسية والعلمية.

* تطاول سنه وتعميره عقودا كثيرة من الزمن حتى اتصل بخمس ملوك من الدولة العلوية ومبايعته لهم.

* رحلاته المتعددة و المتكررة إلى سوس والحواضر المغربية التي امتدت إلى البقاع المقدسة 1274هـ و1275هـ، وقد عززت هذه الرحلات مكانته العلمية والصوفية.

* خصص جزءا من حياته للجهاد في سبيل الله لما اعتزم الاستعمار الفرنسي احتلال الصحراء الغربية فصار يدعو القبائل إلى مقاومة التغلغل الاستعماري، وله رسالة فقهية سماها (هداية من حارا في أمر النصارى) كتبها في الرد على ولد عايدة بسبب تحالفه مع الاسبان إثر معركة الداخلة سنة 1302هـ.